الكسب بالاحتراف من طريق الصناعات
والحرف ومكانته فى القرآن

د. أبو اليزيد أحمد حمادة

أولا تقديم :

يحرز الأسلام المتدين به من الأقتصاد فى كسب المال على الزراعه وحدها ... أو عليها وعلى غيرها مع تجاوز الحد فيها تجاوزاً يودى إلى التخلف فيما عداها من وجوه الأكتساب الأخرى ولذافإنه يتعين عليهم أن يكسبوه من طريق مزوالة الصناعات العديده والحرف المختلفة باعتبارها من ألزم الضروريات لبناء حياتهم وصيانة مقومات دولتهم ليغنوا منها أنفسهم بجهودهم ... ولئلا يجلبوا الذل على أنفسهم إذا ما اضطروا إلى استيراد المنتجات الصناعية من دول تستغل منهم هذه الفرصه لتفرض بذلك بتعبتها عليهم.. وتربط مصيرهم بمصالحها .. ولكى تحتفظ لنفسها بذلك على الدوام فإنها تزج بهم فى مشاكل معقده وطرق ملتوية.. ليدوم رجوعهم إليها كلما نزلت بهم المحن وتوالت عليهم الكوارث ... وما الذى عليه المسلمون الآن من الدخول فى صراعات مع بعضهم البعض ثم مع غيرهم إلا نتيجه لما توسوس به هذه الدول إليهم ... وقد كان المسلمون بمنجاة من هذا لو أنهم صنعوا بلادهم .. وأعتمدوا فى تصنيعها على سواعدهم .. خصوصاً وأن أرضهم غنية بالموارد التى يكفى لقيام أعظم صناعة فى العالم ولديهم من الثروة البشرية مايحقق لهم النهوض على أتم الوجوه وأحسنها ولهم من تعاليم دينهم مايوصل ركائز الأيمان فى أذهان كل من العامل ورب العمل معاً . وهى خير مايعتمد عليه فى هذا المضمار ، إذ بفضل ماتخلق من رقابة ذاتية فى داخل النفوس تدفع العامل إلى الأتقان والتجويد ، كما تدفع

رب العمل إلى العدل والإحسان ، لما يرى كل منها من عظيم المسئولية التى يتعرض لها عندما يحاسب أمام الله وحده .

وهذا غير متوفر فى المجتمعات التى تعتبر بمنأى عن هذا الإيمان سواء كانت رأسمالية أو شيوعيه ، فالعامل فى النظام الرأسمالى يعانى من طغيان رب العمل وسوء معاملته له .. تلك المعاملة التى لا توجد قيود تقيدها .. ولا حدود تحدها . . مما أدى إلى التواكل والتكاسل رغم ماهنالك من ترصد وتتبع .

والشيوعيه المار كسيه رغم تشدق القائمين عليها بالمساواة التامه ومحو الفوارق بين الطبقات ، فإنها تخلق الحقد الدفين فى نفوس العمال على رجال الحزب الحاكم لما يتمتعون به من ترف فائق بينما هم يستمرون كالأنعام المذلله والأقنان المستعبدين ، وقس على هذا بقية النظم .

ولذا فإنا نجدهم بين الحين والحين يتمرجون عن هذا الحقد بأضطرابات يحدثونها وثورات يوقدون لهيبها ضد الحاكمين عليهم ، كما حدث ذلك فى المانيا الشرقيه سنه ٥٦ وفى المجر سنة ٥٧ وفى تشيكوسلوفاكيا سنة ١٩٦٨ وبولندا سنة ٧٦ وفيها أيضا سنه ٨٢/٨٣ حينما فرضت حكومة الجنرال ياروزيلسكس الخطر على نقابته تضامن لمطالبتها بمزيد من الحقوق والحريات للعمال :

حدث هذا وسوف يحدث ويتكرر رغم الرقابة الصارمة فى تلك البلاد طالما كان العمال يدفعون إلى الأنتاج من خارجهم ، وليس من داخل ذواتهم وطالما كانت مسئوليتهم أمام بشر يماثلونهم ، ولم تكن عن إيمان بذات

---

(١) الإسلام فى حل مشاكل المجتمعات الإسلامية المعاصر صـ ٢٣٢

عليه لها صفة الحيمنه العليا والإشراف التام ، وهو ما يحققه الإسلام فى نفوس إتباعه .

وسوف يتبين لنا عند الدارسة الآيات القرآنية التى تدور فيها مادة صنع حول المعانى العديدة مقترنة بتعيين الجزاء المرغب فى فضل الله والمرهب من عقابه .

هذا وليس صحيحاً مايرمى به المسلمون من زعم كاذب من قبل أعدائهم الذين ينفثون فى كيانهم سمومهم الخبيثه ، ويروجون لإشاعات باطلة مؤداها أن عقليه المسلمين عقليه متخلفة ، ولا تماثل عقلية الأوربيين فى الإنتاج والإبتكار ومن أصحاب هذا الزعم المستشرق الفرنسى « رينان » والفيلسوف الهولندى « دابور » (٢)

ويبطل هذا الزعم ما تحفل به كتب التاريخ لما يشهد للمسلمين بالتفوق البارز وأسهامهم الملحوظ فى كشف ظلمات العصور الوسطى عن الأوربيين فما هنالك من خير إنما هو ثمرات لهذا الإسهام الذى بمقتضاه أزدهرت أصول العلوم والصناعات لدى هولاء الآخرين . وما كان سبب تخلف المسلمين إلا نتيجة لأحتلال بلادهم ورزوحهم دهراً طويلا تحت حكم المستعمرين الذين لعبوا أدوارهم فى عزلة المسلمين عن دينهم .

كما أنه لا صحة للدعاوى التى تستهدف تنمية الأسلام عن مثل هذه المجالات بحجة أنه أدى دوره فى أصلاح المجتمع البدوى ، وتوقف عند هذا الحد ، وأصبح غير صالح حالياً للمساهمة فى قيام نهضه شاخه وحضارة أصيله وحجة كهذه باطله ، لأن ما حاصل لهم الآن من تخلف وتدهور

---

(٢) ينظر فى كتاب الفلسفة الأسلاميه وصلاتها بالفلسفة اليونانية للدكتور بين محمد السيد نعيم ، وعوض الله جاد حجازى ص ١٦٧

سببه الإسلام وإنما سببه إعراض أهله عنه وإتخاذهم كتابه من وراثهم ظهريا .. ولو أنهم عادوا إليه وأستلهموا الرشد منه لتغير حالهم وتطور وضعهم .. لأن الأشتغال بالصناعات النافعة ليس أمراً مباحا فى هذا الدين فحسب .. وإنما هو فروض الكفايات .. بمعنى أنه يطلب من كل المسلمين توفير الصناعات والعلوم التى تحقق لبلادهم العزه والمنعة .. ويخلو البلاد من مثل هذه الصناعات والعلوم كلها أو بعضها - يأثم المسلمون عامة وألوا الأمر منهم خاصة .

يقرر ذلك أئمتهم وعلماؤهم كالإمام الغزالى الذى يقول :

« إما فروض الكفاية فهو كل علم لا يستغنى عنه فى قوام أمور الدنيا كالطب إذ هو ضرورى فى حاجة إبقاء الأبدان .. وكالحساب فإنه ضرروى فى المعاملات وقسمة الوصايا والمواريث وغيرها .. وهذه هى العلوم التى لو خلا البلد عمن يقوم بها .. حرج أهل البلد وإذا قام بها واحد كفى .. وسقط الفرض عن الآخرين .. فلا يتعجب من قولنا إن الطب والحساب من فروض الكفايات .. فإن أصول الصناعات أيضاً من الكفايات كالفلاحة والحياكة والسياسة بل الحجامة والخياطه .. فإنه لو خلا البلد من لسارع الهلاك إليهم بتعريضهم انفسهم للهلاك فإن الذى أنزل الداء أنزل الدواء .

وأرشد إلى استعماله وأعد الأسباب لتعاطيه فلا يجوز التعرض للهلاك بأهماله » .

فكلام هذا الإمام يدل أصـــدق دلالة على مبلغ أهتمام الإسلام بالأشتغال بالصناعات والحرف وأكتساب المال عن طريقهما لأنها

---

(١) أحياء علوم الدين جـ ١ صـ ١٥

لأنها من أهم الأركان التى يقوم عليها بناء العالم وهى أسس الحضارات ، فالحضارات مجموعة من الأفكار تجسدها مجموعه من الصناعات.. وفيما نأكل وفيما نشرب وفيما نلبس وفيما نسكن وفيما نتمتع به من ألوان الزينه والرقى جملة من الصناعات يشتبك بعضها ببعض ويكمل بعضها البعض وبالصناعات يقوم الهيكل الأقتصادى للعالم كله لأهميتها دعا الأسلام إليها وجعلها من فروض الكفاية :

ثانيا : ومن خلال عرض الآيات القرآنية المشتملة على مادة صنع وما يتصرف منها سوف يظهر تصديق ذلك .. وتلك هي .

الآيات

١ — « أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً .. فإن الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء .. فلا تذهب نفسك عليهم حسرات .. إن الله عليم بما يصنعون » (١)

٢ — « إتل ما أوحى إليك من الكتاب وأقم الصلاة .. إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، ولذكر الله أكبر ، والله يعلم ما تصنعون »(٢)

٣ — « وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب .. صنع الله الذى أتقن كل شيء .. إنه خبير بما تفعلون » (٣)

٤ — « وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون »(٤)

٥ — « قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون » (٥)

٦ — « فأوحينا إليه أن أصنع الفلك بأعيننا ووحينا » (٦)

٧ — « وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون »(٧) .

---

(١) فاطر ٧
(٢) العنكبوت ٤٥
(٣) النحل ٨٨
(٤) الشعراء ١٢٩
(٥) النور ٣٠
(٦) المؤمنون ٢٧
(٧) الأنبياء — ٨

٨ — « وألقيت عليك محبة منى ولتصنع على عينى »(١)

٩ — « فلبثت سنين أهل مـــدين ثم جئت على قدرٍ ياموسى .. واصطنعتك لنفسى »(٢) .

١٠ — « وألق ما فى يمينك تلقف ما صنعوا .. أن ما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى(٣) .

١١ — « قل هل ننبئكم بالأخرين أعمالا الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا .. وهم يحسبون صنعا »(٤)

١٢ — «وضرب الله مثل قرية كانت آمنه مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان .. فكفرت بأنعم الله .. فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون »(٥)

١٣ — « من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يتجسون .. أولئك الذين ليس لهم فى الآخره إلا النار وطبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون »(٦)

١٤ — « واصنـــع الفلك بأعيننا ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا إنهم مغرقون(٧) »

١٥ — « ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه .. قال إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون »(٨)

---

(١) طه — ٣٩
(٢) طه ٤١
(٣) طه — ٦٩
(٤) الكهف — ١٠٤
(٥) النحل — ١١٢
(٦) هود ١٥—١٦
(٧) هود — ٣٧
(٨) هود — ٣٨

١٦ — « لايزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريبا من دارهم حتى يأتى وعد الله .. إن الله لا يخلف الميعاد »(١)

١٧ — «وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التى بارك فيها وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى اسرائيل بما صبروا ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه .. وما كانوا يعرشون » (٢)

١٨ — «ومن الذين قالوا أنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظاً مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوه والبغضاء إلى يوم القيامة .. وسوف ينبؤهم الله بما كانوا يصنعون » (٣)

١٩ — لولا ينهاهم الربانيون والاحبار عن قولهم الاثم وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يصنعون » (٤)

---

(١) الرعد ٣١
(٢) الاعراف ١٣٧
(٣) المائدة ١٤
(٤) المائده ٦٣

ثالثاً : — بيان ما تدور عليه مادة صنع من المعانى فى هذه الآيات

تدور مادة صنع على معنى الإحداث والأنشاء وما إليهما مما يشار كهما فى الفعل إذا كان صادراً عن علم وترتيب وإحكام .. وهى بذلك تطلق فيما معنا من الآيات على ما يأتى .

● فتطلق على عمل من غلبتهم أهواؤهم وألغوا عقولهم وانتكست آراؤهم .. فاستحسنوا القبيح من الكفر وسوء العمل من أولئك الذين نهى الله نبيه عن أن يهلك نفسه عليهم حزنا .. « وإن الله عليم بما يصنعون »

● وتطلق على الخير الذى أمر الله به نبيه وأصحابه من تلاوة كتابه تقرباً به إليه واستكشافاً لمعاينة .. ومن الداومة على أداء الصلاة لما فيها من الإبعاد عن الأفعال السيئة .. وكل ما ينكرة الشرع والعقل .. نفضل ما تنطوى عليه من تذكير بعقابه وطمع فى ثوابه واحتسابها إلى جانب ذلك على ذكر الله الذى هو أكبر الطاعات وأفضلها « والله يعلم ما تصنعون »

● كما تطلق على الفعل الجيد « صنع الله الذى اتقن كل شىء »

● وعلى ما يبنى لتجتمع فيه الماء من حيا من وآبار « وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون »

● وعلى ما حذر الله منه المؤمنين من إجابة أنظارهم وتحريك شهواتهم وتوجيه جوارحهم إلى مالا يحل لهم بعد أن أمرهم بالعفن من أبصارهم وحفظ فروجهم « ذلك أزكى لهم .. إن الله خبير بما يصنعون »

● وعلى الأمر بمباشرة الصفة « فأوحينا إليه أن اصنع الفلك »

● وعلى عمل ما يصنع « وعلمناه صنعه لبوس لكم .

● وعلى التربيه فى ظل الرعاية والكلاءه « ولتصنع على عينى »

● وعلى الأصطفاء والخلق والتعليم « واصطنعتك لنفس »

● وعلى المزور المنتحل « إن ما صنعوا كيد ساحر »

● وعلى اتخاذ الكافر بين عباد الله من دونه أولياء معتقدين أن ذلك حق وصواب « وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا »

● وعلى ما يتحقق الكفران بالنعم « فآذاقها الله لباس الجـــوع والخوف بما كانوا يصنعون »

● وعلى الكفر وسوء العمل « ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة .

● وعلى ما يفعله المراءون والكفار من إحسان وبر يبتغون به الحياة الدنيا وزينتها « وضبط ما صنعوا فيها وباطل وما كانوا يعملون »

● وعلى مباشرة العمل يراد إنجاز صناعة « ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه »

● وعلى الحصون والقصور « ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه »

● وعلى نقض النصارى العهد الذى أخذ عليهم فى انجيلهم ونسيانهم نصيباً مما ذكروا به « وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون »

● وعلى عـــدم تهى الربانيين والاحبار لليهود عن الكذب وأكل الحرام « لبئس ما كانوا يصنعون »

فاذا صنع بهذه الاطلاقات قد اشتملت على معان متقاربة فى الأحداث والانشاء لمارتب أمره وأحكم العلم به .. ولهذا يقال « وبخصوص الصنع بالمراد الجيد يقال للحاذق : صنع كيطل وللحاذقة صناع .. كما قالوا ثوب صنيع للجيد وفرس صنيع أى حسن قيام صاحبه عليه .. كما قالوا صنع فلان جاريته أو صنعها إذا رباها »(١) .

---

(١) معجم الفاظ القرآن الكريم حـ١ صـ٧٠١

وإذن فهذه المادة لاتطلق إلا على ما يصدر عن إحكام وترتيب وإجادة من الصناع .. وهو ما تنفرد بالتنصيص عليه لغة القرآن الكريم دون غيرها من اللغات .. حتى لقد ذهب غير واحد من علماء هذه اللغة إلى تبيين الفرق بين مدلول كل من الصنع والعمل والفعل .. ليظهر بمقتضى هذا الفرق ما لألفاظ القرآن من إيحاءات معنويه خاصه بكل منها .

ويتذوق ذلك من يدقق فيها الفكر ويمعن النظر .. يقول الراغب الأصفهانى « الصنع إجاده الفعل فكل صنع فعل وليس كل فعل صنعا . . . ولا ينسب إلى الحيوانات والجماعات وإنما ينسب إليها الفعل »(١)

وجاء فى معجم ألفاظ القرآن « وجملة الفرق بين الصنع والعمل والفعل كما ينبه غير واحد من اللغويين هو أن الصنع أخص المعانى الثلاثه إذا يكون من الإنسان دون غيره .. ويكون بإجاده وعن ترتيب وإحكام لما تقدم العلم به ليوصل إلى غايه مرادة منه .. وأما العمل فأوسط الثلاثه إذا يكون من الإنسان والحيوان ويكون بقصد وعلم .. وأما الفعل فآخر الثلاثه وأعمها إذا يكون من الإنسان والحيـــوان والجماد جميعاً ويكون بإجاده ودونها .. ويكون بقصد وبلا قصد .. ولهذا يقال كل صنع عمل وليس كل عمل صنعا وكل عمل فعل وليس كل فعل عملا »(٢) .

ومن هنا فإن حكمة التعبير القرآنى تكون فى منتهى الوضوح حينما يرد منه الفعل إلى جانب الصنع فى مثل قوله تعالى : « صنع الله الذى أتقن كل شيء إنه خبير بما تفعلون » وحين يرد العمل مجاوراً للصنع فى قول الحق عز وجل « وضبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون »

وقد أفصح القاضى البيضاوى عن دقة الفرق بين العمل والصنع فى

---

(١) المفردات — فى غريب القرآن ص ٢٨٦ — ٢٨٧

(٢) معجم ألفاظ القرآن الكريم حـ١ ص ٢٠١ — ٧٠٢